الوجهة الثالثة
الأحوال الجغرافية لجزيرة العرب

الموقع الجغرافى

تقع جزيرة العرب فى الجهة الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتسكنها القبائل البدوية العربية منذ القدم وهى شبه جزيرة كبيرة.

يحدها شمالاً بر الشام وصحراء الجزيرة، وشرقًا خليج البصرة، وجنوبًا المحيط الهندى[١] وغربًا البحر الأحمر[٢] ومضيق باب المندب.

وطولها تقريبًا من الطرف الشمالى إلى جنوبها ألفان وخمسمائة كيلو متر تقريبًا[٣]، وعرضها من الجهة الغربية إلى جهتها الشرقية ألف كيلو متر. وتتسع عرضًا فى جهتها الجنوبية ومساحتها ثلاثة ملايين ومائة وستة وخمسين ألف كيلو متر مربع، وسكانها اثنا عشر مليونا.

ويروى أن الأوروبيين الواقفين على فن الجغرافيا قدروا مساحة جزيرة العرب السطحية بأكبر من بلاد فرنسا أربع مرات، وأن سكانها يبلغون اثنى عشر مليونًا.

إن مكانًا يتسع بهذا القدر ويسكنه اثنا عشر مليون نسمة فقط يدل على أن أكثر أماكنه غير مسكونة. يقول مؤلف تقويم البلدان السلطان (عماد الدين الأيوبى) إن الطواف حول الجزيرة العربية بالسير العادى يستغرق سبعة أشهر وأحد عشر يوما. وبناء على هذا التقدير إذا خرج إنسان من صحراء برية الشام، فالحد الأقصى للجزيرة العربية متجهًا إلى المدينة المنورة يصل إلى مينائها ينبع البحر فى ستة وعشرين يومًا، ومن ينبع البحر إلى ميناء رابغ فى ثلاثة أيام، ومن رابغ إلى جدة فى ثلاثة أيام، ومن جدة إلى عدن ومن عدن إلى سواحل المهرة، ومن

(١) يعنى بحر عمان.
(٢) يعنى بحر جدة.
(٣) مقياس كيلو متر يساوى ألف متر.

سواحل المهرة إلى عمان، ومن عمان إلى الأحساء (أى هجر) فى ثلاثين يومًا بين كل واحدة من هذه البلاد. ومن هجر إلى أول عراق العرب فى ١٥ يوما، ومن أول عراق العرب إلى البصرة فى يومين، ومن البصرة إلى الكوفة فى اثنى عشر يومًا، وإذا ما اعتبر كل يوم منها مرحلة واحدة فيكون من حيث المجموع مائتان وواحد وعشرون يومًا، وبحساب الشهور سبعة أشهر وأحد عشر يومًا.

وتعد المرحلة سبعة فراسخ عربية أى ٣٢ كيلو متر، وبناء على هذا تكون مساحة جزيرة العرب الدورية المحيطية ٧٠٧٢ كيلو متر، ويحصل على هذا الحساب بضرب مائتين واحد وعشرين مرحلة فى اثنتين وثلاثين مترًا.

وسطح أراضى هذه الجزيرة مرتفعة عن البحر قليلاً، وبها أماكن منبسطة قابلة للزراعة. والإقليم المعروف بنجد يقع فى منتصف الجزيرة العربية من حيث المسافة الطولية والعرضية، والأراضى المرتفعة المنبسطة تقع فى دائرة صحارى شاسعة.

وصحاريها فى الجانب الشرقى والطرف الغربى منها رملية والصحارى التى فى شمالها حجرية، وفى خارج هذه المواقع الصحراوية دائرة أخرى وأغلب أماكن هذه الدائرة غير منبت، وعبارة عن سلاسل جبال صغيرة.

إن جبال عسير وصنعاء واليمن فى داخل البقعة المتسعة الجسيمة التى تطل على سواحل القطعة اليمانية وبحر عمان هى أماكن صالحة للزراعة.

إن الأراضى التى بين الجبال المنبسطة والشواطئ البحرية رملية ومستوية. قد أحاط البحر الأحمر بالجزيرة المذكورة من جهاتها الثلاث. وثلثا الجزيرة أماكن منبتة وقابلة للزراعة، وثلثها الآخر غير منبتة، وغير آهلة بالسكان. وفى أراضى رملية حجرية ولا يوجد فيها نهر يجرى، لذا فالأماكن الصالحة للزراعة لا تنبت إلا بمياه الأمطار، وعند انقطاع الأمطار بمياه الآبار.

بما أن أكثر مناطق هذه الجزيرة تقع تحت المناطق الحارة فهى شديدة الحرارة، وأكثر أراضيها حجرية جدباء، ولكن بما أن هذه الجزيرة تشرفت بظهور الدين الإسلامى فيها، ودعاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فالجزيرة العربية أسعد مكان على الكرة الأرضية وأكثرها يمنًا وبركة.

فى ذكر البحار التى تحيط بالجزيرة العربية من جهاتها الثلاث

البحر الأحمر:

البحر الأحمر بحر يعرف بالخليج العربى، وبحر القلزم، وبحر الشعاب والشعب، وبحر جدة. يتصل من جهاته الغربية بـ (مصر والحبشة) والجهة الشرقية ببلاد الحجاز واليمن، ويتصل من جهته الشمالية بالبحر الأبيض المتوسط بواسطة قناة السويس. كما يتصل بالمحيط الهندى من جهته الجنوبية بواسطة باب المندب، ويبلغ طوله ٢٦٠٠ كيلو متر، وعرضه المتوسط ٢٤ كيلو متر. تنقسم جهته الشمالية إلى خليجين ويطلق على الخليج الذى فى جهته الشرقية (خليج العقبة)، ويطلق على الخليج الذى فى جهته الغربية (خليج السويس).

والبحر الأحمر قليل الجزر وإن كان هناك شعب مرجانية فى حالة نمو مثل الأشجار إلا أن هذه الشعب غير مفيدة للسفن مثل الجزر.

وهذه الشعب المرجانية ترتفع فوق سطح البحر مقدار ذراع وبعضها يرتفع من عمق البحر إلى سطحه ولون الشعب المرجانية على السواحل أحمر وأعماقه سوداء ولون الشعب القريبة من سطح البحر أخضر، والسفن التى تسير فى هذا البحر تتعرض لخطر الاصطدام بالشعب المرجانية.

وبما أن الشعب المرجانية فى الأماكن القريبة من الشواطئ فالسفن الصغيرة ذات الشراع والقوارب تسير على الشواطئ مضطرة، فهناك سفن كثيرة تصطدم بالشعب المرجانية وتغرق أو تخرب.

والشعب المرجانية قليلة فى وسط البحر وقد وضع على بعضها منارات

كما أن الذى من غير المنارة منها معروفة لدى رجال البحر، لذا ترى البواخر الكبيرة التى تبحر فى وسط البحر تأمن الاصطدام بالشعب المرجانية وخطرها. وينمو فى هذا البحر الصدف واللؤلؤ، والباغة واليسر وهى أشياء قيمة كما أن أنواع الأسماك المختلفة الكائنة فى هذا البحر نادرة الوجود فى البحار الأخرى.

بحر عمان:

يتصل بحر عمان الذى يعد جزءا من المحيط الهندى الذى يحيط بالشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب إلى مضيق هرمز يتصل بالمحيط الهندى بواسطة مضيق هرمز فى خليج البصرة.

ويخرج من هذا البحر: الصدف واللؤلؤ وصمغ العنبر.

خليج البصرة:

يعرف كذلك بخليج فارس، ويقع فى الجنوب الغربى لقارة آسيا وبين بلاد العرب والعجم وطوله تسعمائة كيلو متر وعرضه أربعمائة وخمسون كيلو متر.

ويتصل من جهته الشرقية بواسطة مضيق هرمز ببحر عمان ينصب لهذا الخليج نهر الفرات بعدما يتحد بنهر الشط.

وأكثر موانيه ازدحامًا بالسفن على شواطئ بلاد فارس، (بندر عباس) و (أبو شهر) وعلى السواحل العربية البصرة و (قطيف). وأغلب أنواع الصدف واللؤلؤ فى هذا الخليج.

وتنقسم جزيرة العرب إلى ست قطع ويطلق على الأراضى التى فى الجهة الغربية الشمالية (الحجاز)، والتى فى الجهة الجنوبية الغربية (اليمن)، الجنوبية (حضرموت) وعلى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى (عمان)، التى فى الجهة الشرقية (الأحساء، البحرين، هجر)، والأراضى التى فى وسط الجزيرة العربية (نجد).

بلاد الحجاز:

بلاد الحجاز المسعودة أولى الأقسام المذكورة وتقع ـ كما ذكر آنفًا ـ فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية وفى السواحل الشرقية للبحر الأحمر والتى تمتد من السويس إلى اليمن. وهذا القسم من الجزيرة يحاط ويحد شمالاً ببادية الشام، وشرقًا بنجد، وجنوبًا باليمن، وغربًا بالبحر الأحمر، وشمالاً وغربًا بالبلاد المصرية ومن جانبها الشمالى الشرقى إلى جانبها الجنوبى الشرقى مسافتها البعدية ألف وخمسمائة كيلو متر.

ويطلق على الجزر التى تقع فى الجهة الشمالية الغربية من الأقطار الحجازية (تيه العرب) و (تيه بنى إسرائيل).

والجانب الجنوبى من أراضى تيه العرب صالح للزراعة وآهل بالسكان ومعمور، إلا أن جهته الشمالية محاطة بالجبال وليس فيها مكان صالح للزراعة والمسكن، لذا فهى مهجورة.

فى تيه بنى إسرائيل جبلان أحدهما جبل سينا (أى طور سينا) والآخر (حوراء).

جبل سيناء:

يصل ارتفاع جبل سيناء إلى ٢٨١٤ متر، وسفحه الذى امتد بين (العقبة) وخليج السويس فى وسط البحر الأحمر.

جبل حوراء:

وجبل حوراء بجانب جبل سينا أيضًا. وارتفاعه ٢٤٧٧ متر.

ويطلق على الأراضى الواقعة فى وسط الحجاز وجنوبه (بادية العرب)، وهذه الأراضى تنقسم إلى منطقتين المنطقة التى توجد فى وسط الأقطار الحجازية تسمى (نفس الحجاز)، والمنطقة التى بين جدة واليمن وعلى ساحل البحر تسمى (تهامة).

وللأقطار الحجازية بلاد معروفة مثل (جدة، ينبع، الطائف، أبو عريش، الطور)، إلا أن أشهر مدينتيها مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويطلق على هاتين المدينتين المباركتين (الحرمين الشريفين).

إن الأحوال الجغرافية للمدينتين المذكورتين كان يجب أن تكتب قبل جميع بلاد الجزيرة العربية، ولكن لما كان مجلدات البلدتين المذكورتين قد أعدت إعدادًا خاصًا باسم مرآة مكة ومرآة المدينة فلم نجد هنا ضرورة لتكرارها.

إن القطعة الحجازية المسعودة لا تستطيع أن تنبت المحاصيل الكافية لإدارة سكانها. وإن كان فيها محاصيل (الصمغ النباتى والعنبر) وكانت بعض مواقعها مستوية ومزروعة، إلا أن جهاتها الجبلية كثيرة والخيول التى تربى فى هذه القطعة أجود أجناس الخيول فى العالم.

فى بيان الطبيعة الجغرافية لبلدتى جدة والطائف

جـــدة:

من مدن الحجاز المشهورة تقع فى الجهة الغربية لمكة المكرمة، وعلى بعد تسعين كيلو مترًا منها وعلى ساحل بحر السويس فى درجة خط الطول الحادية عشرة وتسع وعشرون دقيقة فى خط العرض الشمالى، وسبع وثلاثين خط الطول الشرقى، وهى أكثر موانى الحجاز ازدحاما بالسفن.

ولما كان الكيلو متر يساوى ٣٢٨١ قدم يلزم أن تكون بلدة جدة على بعد ستة أميال من غرب مكة المعظمة، وتقطع هذه المسافة بسير الجمل فى ثمانى عشرة ساعة أى فى يومين.

صادرات ولاية الحجاز الرئيسية (جلد البقر، البن، الصمغ العربى، العطور المتنوعة، ريش النعام، سن الفيل، صبار، اللؤلؤ، الصدف، البلح، المرجان، الحناء، اليسر، الباغة، العسل) وارداتها حاجيات سكان البلاد الضرورية، وهى التى تستورد من مصر والبصرة وأوربا وأفريقيا وبورصة وسورية وبومباى مثل (الأرز والقمح، الشعير، الدقيق، الزجاج، دهن الورد، الصابون، الأقمشة الصوفية والقطنية، والخشب، سن الفيل، ريش النعام، المسك، الأبسطة والنعال) وكل هذه الأشياء تصدر وتستورد من ميناء جدة، وبناء على ذلك يصل ما يؤخذ من الضرائب فى جمرك جدة خمسة أو ستة ملايين قرش ورسوم الإدخالات.

إن ازدحام ميناء جدة بالعمل جعلها مدينة تجارية عظيمة وكثر مسافروها، ولا

يمكن للإنسان أن يخمن عدد الحجاج والزوار والتجار الذين يأتون فى موسم الحج لعدم اطراده.

ويبلغ عدد سكانها مع مجاورى وتجار مصر والشام والهند واليمن وكلهم مسلمون[1] إلى خمسة وعشرين ألف نسمة.

وبالمقارنة ببلاد سواحل البحر الأحمر فبلدة جدة المعمورة تعد من المدن القديمة. ويحيط جوانبها الأربعة سور بناه أحد ملوك الشراكسة المصريين، وهو الملك الأشرف قنصوه الغورى فى سنة (٩١٢)، وعلى قول آخر بناه سنة (٩١٥).

ولهذا السور ستة أبواب باسم (باب مكة، باب المدينة، باب الشريف، باب الشهداء، باب البحر، باب المغاربة) وله برجان مشهوران يسميان (برج ليلى) و (برج المجنون) ويروون أن ليلى والمجنون مدفونان بجانب البرجين وكل برج يحمل اسم واحد منهما.

وإن لم يُرَ ما يؤيد هذه الرواية فى كتب التاريخ، إلا أن تسمية هذين البرجين بهذين الاسمين مما يؤيد صحة هذه الواقعة.

وباب مكة من الأبواب المذكورة يفتح إلى الشرق، وباب المدينة إلى الشمال وأبواب الشريف واليمن والبحر والمغاربة تفتح إلى جهة البحر.

قد حفظ السور الذى بناه الملك الأشرف مدينة جدة من الأسطول البرتغالى، لأن الأسطول البرتغالى دخل إلى ميناء جدة بعد بناء السور بقليل، وأطلق مدافعه على المدينة ولكن أهالى القلعة أقدموا على الدفاع عن مدينتهم بواسطة المدافع التى عبأها الملك الأشرف فلم يتحمل الأسطول ذلك وانسحب مدحوراً، وأراد البرتغاليون أن ينتقموا لهذه الحادثة فأتوا فى سنة ٩٤٨ بثمانين سفينة، ونزلوا إلى البر من ميناء (أبى الدوائر) بجنود كثيرة، وأخرجوا ذخائر ومهمات إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة واحدة لهمَّة أمير مكة المعظمة أبى نمى ومحافظ جدة

(١) وفيها ما يقرب من مائتى نصرانى وأكثر هؤلاء تجار الأغذية وموظفى القنصليات.

على بك، ومساعدة الأهالى والعربان فاضطروا للانسحاب، وبما أن جدة بمثابة مفتاح الحرمين المباركين، أرسل فى سنة ١١٣٨ من استانبول الفرقة ثلاثة وسبعين الإنكشارية مع مقدار كاف من حراس الحدود لتأمين القلعة المذكورة من هجمات الأجانب وتسلطهم، وبعد اثنتين وعشرين عامًا وفى سنة ١١٦٠ عمرت ورممت الأماكن التى اقتضى الأمر إصلاحها فى جدة بواسطة والى جدة والحبش تاتار عثمان باشا المشهور.

وفى جدة المعمورة معسكر للجيش، ودائرة موانى، خمسة جوامع وثلاثون مسجدًا، ودائرة حكومية، ودائرة جمرك وسبعة أضرحة، وبرجان وثلاثمائة صهريج وحمام، وألف وثلاثمائة منزل وتسعمائة دكان وأربعون مقهى وأحد عشر مخزنًا، وسبع وأربعون طاحونة تدار بالحيوانات، ومصبغ، وعشرة مطاعم، وفندقان، وثلاثون خانًا لبيع الغاز والنفظ، وأربعة أحواض، وتسعة سبل ومخزن للماء للسفن وست إدارات للشرطة، وقلعة، ودائرة للبلدية.

وأكثر هذه المبانى منتظمة ومبنية بالآجر، وشوارعها منظمة فى خط مستقيم، ودكاكينها مملوءة بأنواع الأقمشة والأمتعة الهندية، والدائرة الحكومية فى باب المدينة وموقعها فى غاية اللطف، وهواؤها بالنسبة للأماكن الأخرى جيد وخفيف.

وكان موظفو الحكومة قبل ذلك يقيمون فى القصر المنسوب لطوسون باشا ابن والى مصر المشهور محمد على باشا والذى اتخذ الآن سجنًا، وقبل أن ينتقل موظفو الحكومة لهذا القصر كانوا يقيمون فى دائرة قاعة الإمارة، الكائنة فى الحى اليمانى، وكانت هذه الدائرة أقدم دائرة حكومية وآل أمرها إلى الخراب الآن.

وكانت مدينة جدة إلى سنة ١٢٨٠ مركز أيالتى جدة والحبش فنقلت الولاية فى تلك السنة إلى مكة المكرمة. وكان الولاة من الأسلاف وإن كانوا يقيمون فى مدينة جدة إلا أنهم كانوا يمضون مواسم الحج فى مكة المكرمة.

وقد أسس وبنى أحد جوامع جدة قرا مصطفى باشا الذى تولى الصدارة سنة ١٠٥٣. وبنى الجامع الآخر فى سنة ١١٣٤ والى جدة والحبشة بكر باشا.

ومازال جامع بكر باشا معموراً إلى اليوم ويشتهر بكثرة جماعته، والجامع المنسوب لقرا مصطفى باشا يعرف الآن باسم (جامع الإمارة)، وقد بنى حمام جدة وأحد خاناتها قارا مصطفى باشا أيضًا وهما من جملة خيراته.

إن أكثر منازل جدة ـ كما سبق توضيحه ـ مبنية نصفها من الطوب وأكثرها ذو طابقين، وقد بنى الطابق الأول وفق الهندسة والطراز الهندى ونوافذها دون زجاج وأطر، لذا فمن الصعب الجلوس فيها نتيجة للغبار المثار فى الطرقات.

وأهالى جدة عامة يحبون العمل وأغلبهم أغنياء، ويشتغلون بجميع أنواع التجارة، قد اكتسب ميناء جدة من حيث التنظيم الشهرة، والأهمية الطبيعية فى عهد سلطاننا حتى أصبح الميناء الأول للبحر الأحمر، والمدينة الأولى كما أنه ملجأ وملاذ السفن التى تسير فى خليج السويس.

وكافة أهاليها غير نصفة من الأوروبيين وغير مسلمين. ويتاجر بعضهم بالهند والمستعمرات الأجنبية الأخرى، وبعضهم[1] بأعالى الحبشة، وسواكن، ومصر وزنجبار وسومطرة، جاوا اليابان، الصين، الأناضول، والروملى، وسوريا، وبلاد المغرب، نجد، اليمن، العراق، البحرين، مسقط، أوربا، روسيا وإيران) لذا لا ينقطع سيل السفن التى تأتى من جميع الجهات.

ولما كانت الصخور المرجانية كثيرة فى الميناء فالدخول فى الميناء يشكل صعوبة وخطورة، لذلك لا يمكن للسفن الأجنبية الدخول فى الميناء بدون الاسترشاد بالأدلاء المحليين، ولا سيما عندما تبدأ المياه تظلم بعد العصر يصبح الدخول فى الميناء مستحيلاً. ويروى أن كثيرًا من السفن التى تجرأ ربّانوها المشئومون على الدخول فى الميناء تعرضوا للمخاطر، لأن ميناء جدة يتشكل من الصخور المرجانية

(١) ومن بين هؤلاء: «محمد يوسف باناجى، محمود خونجى، عبد القادر حاجوم، موسى البغدادى» من الذين لهم معاملة تجارية بلندن، كما أن بيت البنان وسيد عمر سقاف من الذين اشتهروا فى تجارة جدة.

الطبيعية وإن كانت وسائل الأمن والسلامة متسعة بالنسبة للسفن إلا أن مضيقى (المسمارية) و (الشاب الكبير) كثيرًا الخطورة.

ولما كان داخل الميناء عميقًا قدر ثلاثة أذرع إلى سبعة أذرع تدخله السفن الكبيرة وتتجمع فيه خمسون وستون سفينة وثلاث وأربع بواخر بريدية، وثلاث وأربعة سفن شراعية فى صورة دائمة. ويمكن أن يصنع فى نفس ميناء جدة سفينة ذات ثمانين أو تسعين طنًا.

يشتغل قسم من أهالى جدة بصناعة (المسابيح والصياغة وصناعة الصدف، والبقالة، والصباغة، وصيد السمك) وقسم آخر يصطادون المرجان واليسر والصدف واللؤلؤ، ويتاجرون بهذه الأشياء. وقسم منهم يعملون بتسيير القوارب والسفن.

ومن بينهم من ذهبوا إلى المحيط الهندى ورجعوا وأحيانًا ذهبوا إلى موانى الصين، وربانوها تعودوا السفر إلى زنجبار وسنغافورة.

ومن أهل البلد من يمتلكون سفنًا شراعية ذات حمولة ستمائة طن إلى ألف طن، وهناك أكثر من مائتين ممن يمتلكون سنابق، وهذه السفن تنتقل بين موانى (سواكن، مصوع، الوجبة، ينبع البحر، حديدة، زيلع، مسلط، مكلا، البصرة، وشحر).

تهب فى ميناء جدة رياح البحر الرطبة والرياح الشرقية والجنوبية والغربية والشمالية، ويطلق على الرياح الغربية الشمالية عند الأهالى (بحرى)، وعلى الرياح الجنوبية الشرقية (أزيب).

ورياح (البحر)، رطبة ورياح الشرق حارة، ويروون أن لهذه الرطوبة فوائد. كما أن رياح السموم التى تحمل الحرارة غير ضارة.

وتبلغ درجة الحرارة عندما تبلغ أشدها إلى واحد وأربعين درجة سانتفراد إلا أن رطوبة البحر تحمل البرودة فى الليالى.

وتنتشر فى الخريف والشتاء علة الحمى فى جدة إلا أنه بعد أن أجريت مياه

عين (حميدة) فى داخل المدينة فإن هذا المرض قل بنسبة سبعين إلى تسعين فى المائة كما ترويه المصادر الموثوقة.

الصخور المرجانية التى تشكل ميناء جدة:

الصخور المرجانية التى تكون ميناء جدة ثلاثة أقسام.

١- القسم الأول ـ الصخور المرجانية المتصلة بالشاطئ، وعندما يظهر الجزء الأعظم فى البحر تظهر كأنها يابسة.

٢- القسم الثانى ـ الصخور المرجانية القريبة من سطح البحر ومركز ظهورها قاع البحر.

٣- القسم الثالث ـ البعيدة عن سطح البحر يعنى عكس القسم الثانى. ووضع هذه الصخور المرجانية أفقى غير متسلسل وكل واحدة من هذه الصخور موازية فى الخلقة مع الأخرى، وتحدث من ذلك خطوط كثيرة ومن اجتماع الخطوط المائية تحدث تيارات مائية، والصخور المرجانية التى من القسم الأول كلما تنحدر القمة يخف ارتفاعها نحو اليابسة، ويحدث ميول خفيفة ويتشكل من هذه الميول تلال صغيرة.

والصخور المرجانية التى تنمو فى داخل البحر ثلاثة أنواع من حيث الخلقة:

١- النوع الأول ـ الصخور المرجانية القريبة من سطح البحر ومهما بذل من الجهود لتحطيم وكسر هذه الصخور واستخدم فى كسرها أى نوع من الآلات والأجهزة لا يمكن ذلك.

٢- النوع الثانى ـ الصخور المرجانية التى تنبت فى قاع البحر وتنمو مثل الأشجار والنباتات، ولما كانت هذه الصخور من حيث الخلقة قابلة للكسر فإنها تنكسر بسرعة وسهولة.

٣- النوع الثالث ـ التكونات المرجانية التى لم تتجمد بعد ومازالت طرية كالطين.

الجزر والمد :

يحدث فى ميناء جدة نوعان من الجزر والمد يطلق على أحدهما (الجزر الأعظم)، وعلى الآخر (الجزر الأصغر).

الجزر الأعظم:

هو الجزر الذى يحدث فى أوائل مايو، ويمتد إلى شهر أكتوبر والذى يظل ستة أشهر.

وتظهر الصخور المرجانية المتصلة باليابسة، والتى تمتد داخل البحر حيث تنخفض المياه قدر متر ونصف متر فى هذا الموسم، إلا أنه لما تبدأ المياه تزيد تدريجيًا من أول نوفمبر إلى آخر أبريل فإنها تغطى الصخور المرجانية.

الجزر الأصغر:

هو الجزر الذى يحدث كل يوم إذ تزيد المياه كل يوم قدر خمسة وأربعين سنتيمترًا، ثم تنسحب وتعود لحالتها الأولى. وبناء على ما فهم من هذا التعريف فإن ميناء جدة تكون من أوضاع الصخور المرجانية، لذا تضطر السفن التى تأتى لهذا الميناء إلى إلقاء مراسيها على بعد ميلين منه، لذا ترى أن الأشياء والمسافرين الذين يريدون السفر بهذه المراكب ينتقلون إليها بواسطة القوارب التى يقال لها السنابق.

ولكن لشدة الأسف فإن المدينة التى فيها ميناء مزدحم بالسفن لا يوجد فيها ماء عذب جار. لذا ترى القادرين من الأهالى قد بنوا صهاريج كبيرة يملئونها بالمياه المخزونة من الأمطار كما يملئون الحفر الكبيرة التى حفروها بمياه الأمطار، ويبيعون ما يزيد على حاجتهم من المياه للحجاج والزوار، وبهذا يحصلون على ما أنفقوه من النقود من بيع المياه بل يكسبون أيضًا. ويحدث أحيانًا أن تشح الأمطار فى هذه البلاد مدة سنتين أو ثلاث سنوات.

وكان الناس يعانون كثيرًا فى مثل هذه السنين من قلة المياه، وكان ما يحمله جمل واحد من المياه يباع بثلاثين أو أربعين قرشًا.

وقد حفرت آبار فى مكان يسمى (سرورية) على بعد ثلاث ساعات من جدة لتجلب منها المياه عندما تقل، وإن كانت مياه هذه الآبار قابلة للشرب إلا أنها ليست عذبة كمياه الأمطار لأنها مختلطة بمياه السيول والبحر. ويجب أن تشرب تلك المياه وهى جديدة، فإذا ما حفظت ليلة فى الأوانى أو القرب تتعفن. وقد صنعت قرب صغيرة حتى يحولوا دون تعفن المياه، ودهنوا داخل القرب وخارجها بالشحم الداخلى للحيوانات، ومن الصعب للذين لم يتعودوا شرب المياه المختلطة بالشحوم شرب هذه المياه المجلوبة من الآبار.

ولما كانت هناك مياه جارية فى قرية (وادى فاطمة) التى تقع بين سلسلة الجبال التى على بعد ست أو سبع ساعات من شرق مدينة جدة وفى خارج مكة على بعد ست ساعات شمالاً، وهذه القرية تبعد تسع ساعات من جدة فى جهتها الشرقية، ولما كان سطح هذه القرية مرتفعًا عن سطح أراضى جدة فمن السهل إجراء المياه من هذه القرية إلى جدة، ولا سيما بعد ما زادت أهمية ميناء جدة بعد حفر قناة السويس وازدحم بالسفن الآتية من جميع الجهات وزادت حاجة جدة إلى مياه عذبة حتى يستريح أهاليها من مشقة قلة المياه، من هنا فإنقاذ سكان جدة والحجاج المسلمين والذين يمرون بها من غائلة قحط المياه منتظر من ألطاف السلطان اللامتناهية المأمولة.

يروون أن فى داخل المدينة ماء مجلوب قديمًا، إلا أنه لا يعرف إذا كان هذا الماء جلب من قبل أصحاب الخير أو من قبل الحكومة؟!

بناء على قول أن الذى جلب هذا الماء هو الصدر الأعظم قارا مصطفى باشا سنة ألف وخمسين، ولكن حينما وصل مجراه خارج المدينة ارتحل عن دنيانا، ولم يقدر له أن يجرى الماء فى داخل المدينة.

وقد فهم من الكشوف التى أجريت فى العام الماضى أن منبع ذلك الماء بعيد عن جدة ساعتين أو ثلاث، وخرب مجراه بمرور الزمن وامتلأ بالحصى والتراب.

إن تعمير هذا المجرى وتطهيره لا يحتاج إلا لأربعة آلاف أو خمسة آلاف

ليرة، ومثل هذا المبلغ يمكن جمعه من أهالى جدة الأغنياء وتجارها الميسورى الحال بسهولة إلا أن معظم الأغنياء يمتلكون الصهاريج السالفة الذكر، ولا يحتاجون إلى ماء بل إنهم يحاربون مثل هذا المشروع لكسبهم مقداراً من النقود باتجارهم بالماء، وسيعملون على عدم جلب هذا الماء. ومن هنا يتضح أن جلب هذا الماء يقع على عاتق الحكومة السنية، وعلى همة رجالها ويتمنى الأهالى والحجاج أن يتم هذا العمل الخير فى عهد سلطان عصر المبرات والخيرات. وحمداً لله إذ تقرر فى عهد عثمان باشا والى الحجاز إجراء ماء (عين الوزير) إلى جدة، وهيئت أسباب إجرائها اللازمة وصرفت المساعى باتفاق الأهالى وفى ظل حضرة السلطان، وفق فى إدخال الماء المذكور داخل المدينة وسميت (العين الحميدية) وبنيت طرقها بالحجارة فى شكل منتظم.

أنقذ هذا الأثر الجليل الحجاج والأهالى من شرب المياه المتعفنة، وتسبب فى عمران جدة وجلب شكر الناس ودعواتهم لحضرة الخليفة إلى يوم القيامة.

وإن صادف إجراء العين الحميدية لعهد والى الحجاز الحالى صفوت باشا وينسب له فضل هذا التوفيق إلا أن جلب العين المذكورة تَمَّ بِهِمَّة سالف الذكر عثمان باشا وخلفه جميل باشا وما بذلا من جهد عظيم، لذا يخطئ الذين يختصون صفوت باشا بهذا التوفيق.

ومجرى ماء (عين الحميدية) ابتداء من سفوح الجبل الذى على الجهة الشرقية من المدينة وعلى بعد ثلاث ساعات منها إلى نقطة بعيدة ثلاثين دقيقة فى خارج جدة مبنى بالحجارة ومن هنا إلى المقسم الجسيم فى كل اتصاله فرشت اسطوانات مزدوجة قطرها اثنا عشر سنتيمتراً. ومن هذا المقسم للطرق التى تتفرع إلى أربعة فروع فرشت الأسطوانات الطينية.

وقد بنى مخزن كبير فى المحل الذى يسمى (عيدروس) لجدة وهذا المكان فى اتصال باب مكة للسور، يسمى مقسما لماء عين الحميدية وإلى جهة ما لهذا المخزن بنى سبيل كما بنى سبيل آخر بعد ذلك للمياه التى أجريت إلى المستشفى

العسكرى وحفر لحديقة المستشفى حوض كبير وأنبتت بالمياه الفائضة زروع حديقة كبيرة. كما أنشئ سبيل آخر فى ميدان بئر يعقوب، وبنى فى الحى اليمانى سبيل آخر باتصال منزل شيخ مشايخ جدة إبراهيم عراقى أفندى.

وقد صنع سبيل باسم الخليفة مكمل الشكل فى ميدان الميناء وفى وسط هذا السبيل فسقية وحواليه صنابير، وحوله إطار على شكل السد وحوله سور من حديد مشبك.

وقد كتب على باب السبيل فى الجهة الشمالية التاريخ الآتى الذكر، والذى قاله المعلم الشهيد (فيضى)[1] أفندى ووشح فوق التاريخ بالطغراء السلطانى وزين بها.

السلطان الملائكى الشيم ... خاقان ذو عدل وكرم
ذلك الملك المحتشم ... خان الزمان عبد الحميد
قد جعلك ظل الله ... ذاتك السلطانى الإله
فإنك لعباد الله جميعًا ... فيض مستلزم جديد
يعين المسكين ... ويعمر كل البلاد
يوجد آبار خير ... كثير الإحسان فريد اللطيف
لم يكن فى مدينة جدة ... أبدًا الماء الزلال
لم يكن يستخدم فيها ماء ... غير ماء المطر
هاهو ذا سلطان الدين ... باللطف ماء الحياة
أجرى هناك ... فاستفاد منه الأهالى
فأنشأ عينا لا بديل ... له الماء العذب مثل النيل

(١) فيضى أفندى مدرس المدرسة السلطانية.

عينا تسمى سلسبيل	وأروى فم العطشى
يا «فيضى» ادع له	كلما نزل المطر
فليكن هذا السلطان دائما	طويل العمر سعيد الحظ
اشرب الماء بكفيك	وادع للسلطان حميد
صنع هذا السبيل الجميل	خان الدنيا عبد الحميد

قد بنى على رأس الميناء مخزنًا للماء الذى يمد السفن الحربية السلطانية وبواخر الإدارة الخاصة بالمجان وسائر السفن[1] بالنقود وبنى من أول هذا المخزن إلى داخل البحر جسرًا طوله ستة أمتار وعرضه متران ممتدًا إلى داخل البحر وفى داخل الجسر أنابيب معدنية فى نهايتها وصنعت منافس هوائية، لذلك تستطيع السفن والقوارب ملئ أوانى مياهها بكل سهولة.

وقد بنى سبيل فى حى المظلوم وبالقرب من الجامع الشافعى وفى اتصال جامع المعمار وفى اتصال حوض للوضوء خاص بالشافعية، وأمام منزل الحاج محمود سبيل متوسط وفى الدائرة الحكومية سبيل ذو ثلاثة صنابير على مساحة مستشفى الغرباء القديمة التى أمام الدائرة الحكومية، وأنشئت حديقة مزينة جميلة وداخل هذه الحديقة حوض متسع، وأحيطت الحديقة بسور مشبك من الخشب، وفتح فى جهتها الغربية باب جميل وفى داخل المعسكر السلطانى سبيل على طراز جديد كما بنى حوض فى وسط الحديقة، وبهذا قد اكتسب داخل المدينة وخارجها خضرة جميلة ومنظرًا ساحرا. والأهالى يجتمعون فى الأماسى داخل هذه الحديقة حيث يتنزهون.

طريق الوادى:

هناك طريق فخم من جدة إلى مكة يسمى «طريق الوادى» وطرفا هذا الطريق فى غاية التنسيق ويزينهما جبال صغيرة منخفضة وهذه الجبال مثل جبال الحجاز الأخرى جرداء عارية وتسخن فى الصيف فى النهار حتى تحرق طريق الوادى

(١) وكان يباع طن من هذا الماء بفرنكين فرنسيين كما يروى.

بشدة. وإذا ما بذرت على قمم تلك الجبال المائلة نحو الوادى البذور أنبتت أشجارًا تتحمل الحرارة، وهذه الشجيرات تنمو فى فترة قصيرة، وتبرد طريق الوادى وتزين طرفيه، ويصبح الطريق صالحًا للسير فيه ليلاً ونهارًا وتصلح الهواء بشكل لا يتصور.

قمم الصهريج - فى طريق مكة المعظمة وبالقرب من جدة جبال ترتفع ما يقرب من سبعين مترًا أو ثمانين، ترى من فوقها مدينة جدة المعمورة. والجهة المكية من طريق الوادى وعلى طرفيه تلك الجبال الصغيرة مما يكسب طرفى الطريق منظرًا جميلاً.

ولما كانت ظهور قمم الصهريج قليلة الرطوبة وجيدة الهواء فإذا ما بنى أغنياء جدة على هذه الأماكن قصورًا صيفية، وغرسوا أشجارًا وطرحوا حدائق لزينوا مدينة جدة، كما أنهم سيمضون مواسم الصيف فى راحة ودعة.

وكنت تصورت هذه الرغبة فى سنة (١٢٨٩) وبناء على الأخبار التى وصلت سنة (١٣٠٤) علمت أن شخصًا يسمى السيد عمر سقاف بنى على القمم التى فى ناحية جدة وعلى بعد ثلاث أو خمس دقائق منها دائرة مكملة متينة، وزين منزله هذا بتحف هندية وصينية قيمتها ألفان أو ثلاثة آلاف ليرة.

وبناء على تعريف الراوى وتصويره فإن مخزن «بومبارشة» المشهور فى إستانبول يظل بجانب الدائرة المذكورة كدكاكين العرائس فى حى أبى أيوب الأنصارى.

وإن كان السيد عبد الرحمن طاهر باشا بنى بجانب دائرة السيد عمر سقاف دائرة أخرى إلا أن دائرته بالنسبة لدائرة عمر سقاف تظل مثل كوخ السماك. ومهما يكن فمادام أغنياء أهالى جدة فكروا فى إنشاء المبانى فوق قمم الصهريج ففى مدة قصيرة ستبنى فوق هذه القمم قصور صيفية جميلة، ويتعود الناس على قضاء مواسم الصيف فى هذه المصايف، وتتسع المدينة تحت ظل الرعاية السلطانية.

ولما كان لسكان أعلى قمم الصهريج إمكانية الذهاب والعودة إلى جدة كل يوم فإنهم يعانون من إعداد لوازم حياتهم اليومية.

أمنا حواء رضى الله عنها:

إن ضريح جدة البشر الأعلى حواء ـ رضى الله عنها ـ فى مكان قريب من ساحل البحر وقريب من مدينة جدة وكأنه متصل بها.

إن الضريح المذكور فى داخل مقبرة عادية وخال من جميع أنواع الزخارف والزينات، وفى الجهة التى فيها رأسها وناحية قدميها قطعتان من الحجر كعلامة. كما أن فى وسط القبر قبة لطيفة، إلا أنه ليس بعيد الاحتمال أن يستولى الأعداء على الأراضى التى حول القبة، ويظل مقام جدتنا الأعلى داخل هذه الأراضى، ولكن إذا ما بنى فوق مقام والدتنا المشار إليها ضريح جميل بواسطة هيئة خيرية كهيئة عين زبيدة، وإذا وصلت حدائق القصور والمنازل التى تبنى على قمم الصهريج إلى شاطئ البحر، وأنشئ ميناء على ساحل البحر وتركت إدارته ليد الحكومة السنية العادلة عندئذ قد ينقذ المقام الشريف المذكور من هم انتقاله إلى أيادى الأعداء.

بين جدة ومكة بعض أماكن استراحة يطلق عليها بين العربان «مقهى»، فإذا ما زينت أطراف هذه المقاهى بالأشجار وأسس فيها مركز شرطة فبهذا يمكن تأمين طريق جدة من تسلط الأشقياء، وفى نفس الوقت يهيأ الطريق بمنظر جميل أخضر ويزين.

الطائف:

تقع بلدة الطائف والتى تسمى أيضًا بـ «وادى عباس» على الجانب الشرقى من مكة، وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة وعلى سطح جبل غزوان، الذى[1] يرتفع عن سطح البحر ١٥٧٥ مترًا. وعلى بعد مرحلتين من مكة المعظمة عن طريق جبل قرا وعلى ثلاث مراحل من طريق (سيل)، وخلف جبل قرا بأربع ساعات.

تحوى بلدة الطائف أربعمائة منزل تقريبًا وعدد سكانها ألفا نسمة تقريبًا. وفى

(١) الجبل الذى يطلق عليه غزوان شعبة من سلسلة جبال سراة.

الطائف معسكر سلطانى يستوعب أربعة فرق من الجنود، وستة مساجد صغيرة، وفى الجهة الغربية من المدينة مسجد كبير، وستة جوامع وحرم شريف واحد، ومدرسة كبيرة، وأربع مدارس للصبيان صغيرة، وسبيل ومنزل للمدير، ودائرة الولاية، وعشرة قصور صيفية ومائتا دكان، وقلعة، وسور، وتسعة مخابز، وعشرة دكاكين للجزارة، ومذبحان، وحمام واحد، وثلاثة أحواض، ومقابر عبد الله بن عباس والطيب والطاهر من خدام الرسول ﷺ فى ساحة الحرم الشريف السالف الذكر. وفى مقابل الباب الذى فى الجهة الغربية من الحرم الشريف وخارج السور مقبرة زيد بن ثابت كاتب وحى النبى ﷺ[1].

وفى مكان يسمى وهد الأهالى يطلقون عليه «وحاد» وعلى بعد ساعة ونصف قبر سيدنا عكرمة من أجلة الأصحاب الكرام.

وبما أن (وج) بن عبد الحى وهو رجل من العماليق جاء إلى أراضى الطائف من قبيلته، وتوطن فيها ظل اسم الوادى، الذى يقع بين جبلين والذى يطلق عليهما المحترق وأصجدين، ظل يحمل اسم هذا الرجل ويعرف بوادى «وج» وقد حرم هذا الوادى من قبل النبى ﷺ قبل غزوة الطائف.

وجاء سبب تحريم وادى وج فى حديث رواه أبو داود بسنده عن عروة بن الزبير، عن الزبير، قال: لَمَّا أقبلنا مع رسول الله ﷺ مِنْ لِيَّة[2] حتى إذا كُنَّا عند السَّدْرَةِ وقَفَ رسول الله ﷺ فى طرف القرْن الأسود حَذْوها، فاسْتَقْبَلَ نَخبًا[3] ببصره، وقال مرة: واديه. ووقف حتى اتَّقَفَ[4] الناسُ كلهم، ثم قال: «إنّ

(١) هذا الشخص أستاذ عبد الله بن عباس.

(٢) ليه: بكسر اللام وتشديد الياء المثناة جبل قرب الطائف مرّبه النبى ﷺ عند انصرافه من حنين يريد الطائف، وأمر وهوبه بهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان.

(٣) نخب: اسم واد بالطائف.

(٤) قوله: «اتَّقَفَ النّاسُ» أى حتى وقفوا. اتقف مطاوع وقف تقول: وَقَفْتُه فاتَّقَفَ مثل وعدتُه فاتَّعَدَ. والأصل فيه اوتْقَفَ فَقلبت الواو ياءً لسكونها وكسر ما قبلها ثم قلبت الياءُ تاءً وأدغمت فى تاء الافتعال» أ.هـ. انظر لسان العرب مادة «وقف» ص ٤٩٠٠ ط. دار المعارف.

صَيْدَ وَجَّ وعِضَاهَهُ حرامٌ محرّمٌ لله». وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره لثقيف[1].

وبجانب هذا الوادى شجرة سدر، ومن المحتمل أن تكون هذه الشجرة المشقوقة التى ذكرها المؤرخ المطرى.

وبعد انقراض العمالقة سكن الطائف آل ثمود وجعلوها وطنًا لهم، واستولى عليها بنو ثقيف فيما بعد واستوطنوا فيها.

لما كانت أرض الطائف أكثر ارتفاعًا عن مكة المفخمة، فتقل درجة حرارة الطائف عن مكة المكرمة ست أو سبع درجات ويجود هواؤها، لأجل ذلك يصعد أهل مكة معظمهم إلى الطائف عندما تشتد الحرارة فى أشهر الصيف ويقيمون هناك إلى أن تزول الحرارة.

ودرجة حرارة بلدة الطائف فى أواخر شهر أبريل تصل فى الأماسى إلى ١٧ درجة، وفى الصباح إلى ١٨ درجة، وفى أوائل شهر مايو تبلغ درجة الحرارة إلى ٢٣ درجة، وترتفع أحيانًا إلى ٢٤ درجة، ويبرد الهواء فى ليالى هذه الأشهر فلا يمكن الوقوف فى الأماكن المكشوفة بدون ملابس ثقيلة. وليس فى الأقطار الحجازية مكان أبرد من الطائف حتى إن الماء يتجمد شتاء فى نفس الطائف، أو فى القرى الكائنة على سطح الجبل المذكور.

إن أطراف بلدة الطائف اللطيفة والقرى الواقعة فى الجبل أماكن مليئة بالحدائق والبساتين. يوجد فيها جميع أنواع الفواكه، ولا سيما أنواع وأجناس العنب وخاصة أجود أنواع عنب جاويش والتين الإفرنجى، وجميع أنواع الخوخ والتوت الشامى، والتين والمشمش والبرقوق والبلح والليمون، والرمان وأنواع أخرى من الفواكه التى تجود فى هذه الأماكن. ومياهها ألطف وأعذب مياه البلاد الحجازية، وألطفها «ماء سلامة». كان هذا الماء يأتى من جبل خلف (المثنى)، ولكن لشدة الأسف خرب مجراه ولم يصلح فاختفى وأصبح أثرًا بعد عين.

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى الحج (المناسك) (٩٥) باب فى مال الكعبة، حديث رقم (٢٠٣٢)، ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦. ط دار الفكر.

وأجود المياه الآن مياه بئر «عجلان» فى سلامة ومياه البئر التى بجوار مسجد ابن عباس، وهى فى الدرجة الثانية.

كما أن الماء الجارى الذى يعرف بوحاد[1] أى ـ وهد ـ القريب من قبر عكرمة «كان هذا الشخص مولى لعبد الله بن عباس» رضى الله عنهما على بعد ساعة ونصف ساعة من الطائف.

وهناك ماء مشهور بماء «مرسين» بجبل قرا ولما كان هذا الماء يأتى مارًا من تحت أشجار العرعر متضاربًا ببعض الحصى فهو من أصبح مياه الحجاز وأكثرها إدرارًا.

وحول المدينة بعض المياه الجارية الكبيرة باسم مثنى وشورة وكل هذه المياه إذا ملئت بها القلل تبرد بحيث لا تتحملها الأسنان.

عندما مرض الشريف عبد الله باشا المرحوم تشكلت هيئة استشارية للأطباء وقرر هؤلاء الأطباء أن يعنى بالمياه التى يشربها الشريف عبد الله. وبناء على هذا القرار أمر المشار إليه بتحليل المياه الموجودة والكشف عليها. وبناء على معاينة الأطباء وتحليلهم قد تبين أن أجود المياه من حيث الخفة والعذوبة والنفع بعد ماء «قارا قولاق» ـ الأن السوداء ـ: ماء «مرسين» فى الدرجة الأولى، ومياه بئر عجلان فى الدرجة الثانية، وبئر حديقة مغنى الكائن فى جلع فى الدرجة الثالثة، واتفق الأطباء على أن يشرب الباشا المذكور من ماء «مرسين».

فى بلدة الطائف جميع أنواع الأشجار. ويروى المؤرخ المشهور أن فى الطائف عدة أشجار سدر باقية من عصر النبى ﷺ، حتى إن أهالى الطائف يعرفون البعض بهذه الأشجار.

ويروى المؤرخون ـ على أنها من المصادر الموثوق بها ـ أن النبى ﷺ بينما كان يمر من بين هذه الأشجار انشقت إلى قطعتين تعظيمًا للنبى ﷺ وجعل النبى ﷺ يمر بناقته من بين شقيها.

ويحكى الإمام المطرى أنه زار هذه الشجرة سنة ٩٦ الهجرية وأكل من ثمراتها

(١) وحاد اسم قرية وبما أن ماء وحاد فى هذه القرية عرف بها.

وأن أهالى الطائف يقطفون من ثمارها ويأكلونها متبركين وقد ذكر ذلك مفصلاً فى تاريخه.

ويحكى ابن نور بعد أن بين أنه قام بزيارة هذه الشجرة ورآها قائلاً: «كان النبى ﷺ قد نام ليلة ما بين أشجار الحدائق فى رحلته إلى الطائف ولما استيقظ وسار صادف جملة شجرة من جنس السدر فانشقت الشجرة إلى شقين، وترك الجمل يمر من بين هذين الشقين وعلى ظهره النبى ﷺ، ومازالت تلك الشجرة السعيدة قائمة على ساقين وهى مزار مبارك مشهور فى طريق الطائف».

ولشدة الأسف قد جفت تلك الشجرة فى خلال عام ٧٢٩ من جذورها، وزالت عن الوجود. والآن لا يوجد أثر لتلك الشجرة، كما أنه لا يوجد من يعرف مكانها.

لكن معجزة الشجرة الجليلة صحيحة. وكان أهالى الطائف فى العصور السابقة يقتطفون من ثمار الأشجار التى تنبت فى المحل الذى وقعت فيه المعجزة، ويظنون أن تلك الأشجار من نفس جنس الشجرة المعجزة.

الآثار:

فى أطراف بلدة الطائف ثلاثة آثار، ويظن الأهالى أن فى زيارة هذه الآثار خيرًا وبركة.

مسجد العداس:

أحد هذه الآثار المذكورة مسجد (عداس) وهذا المسجد فى وسط موقع مثنى البعيد عن الطائف مقدار عشرين دقيقة، وفى داخل حديقة تسمى (عداس)، كان النبى ﷺ شرف الطائف مع عبد الله بن مسعود لدعوة بنى ثقيف للدين الإسلامى، وبما أن بنى ثقيف رفضوا لقاء النبى ﷺ ذهب إلى حديقة (عداس) السالف الذكر حيث جلس يائسًا.

كان عداس غلام صاحب هذه الحديقة فأحضر بعض العنب وقدمه للنبى ﷺ.

ولما سر النبى ﷺ من الغلام سأله عن بلده. وعرف أنه من الموصل وقال له «إذن فأنت من بلد أخى يونس». فقال له عداس: «كان يونس نبيًا!! فكيف يكون أخاك؟» ولما أجابه قائلاً «أنا أيضًا نبى» فأسلم عداس.

ولما كان النبى ﷺ فى ذلك المكان فبنى مؤخرًا على ذلك المكان مسجد!! فالمسجد الذى يطلق عليه مسجد عداس هو المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ.

مسجد النملة:

أحد الآثار الثلاثة مسجد (النملة).

هذا المسجد قائم فى المكان الذى حدثت فيه قصة (النملة) كما ذكرت فى القرآن الكريم. وفى بحث سليمان عليه السلام. ولما كان النبى ﷺ قد زار هذا المكان زيارة خاصة بنى عليه مسجد شريف.

مطمخ الغزال:

الثالث من الآثار المكان المبارك الذى يسمى (مطمخ الغزال).

هذا المكان موجود فى وادى الطائف الشمالى وعلى بعد ربع ساعة من مكان يطلق عليه (جعل). وهو موقع ذو صخور وعلى هذه الصخور آثار أرجل الغزلان هنا وهناك، وبناء على رواية أهل المعرفة من الأهالى أن معجزة الغزال وقعت فى هذا المكان، إذ وقعت غزاله فى يد الصياد عندئذ تكلمت الغزالة، وجعلت النبى ﷺ كفيلاً على أن تعود بعد أن ترضع صغارها، ويقال لهذه الزيارة الآن (زيارة مطمخ الغزال).

الآثار العتيقة أو رسم إيبوقراط:

بين الطائف ومكة المعظمة وبين مجريين الذين يقال لهما السيل الصغير والسيل الكبير (عقبة)، وعلى الجهة الجبلية لهذه العقبة بعشرين ذراعًا، وعلى يمين الذاهبين من مكة إلى الطائف صخرة كبيرة منفردة نقش عليها رسم إنسان ضخم

مدهش ذى لحية وعارى الرأس، وقد كتب تحت هذا الرسم باللغة الأفرنكية اسم أيبو قراط. وصنع هذا الرسم من منتصف الجسم إلى أعلى وحفر بقلم الحفر.

وأراد الشريف عون الرفيق باشا أن يعرف كنه هذا الاسم ومتى حفر هناك، وأخذ يتحرى عن حقيقة هذا الأمر فى الأقطار الحجازية، واطلع على الكتب العربية القديمة إلا أنه لم يصل إلى معرفة شىء عنه.

وفى خلال إمارة أخى الشريف عون الشهيد حسين وقع أحد سياح الإنجليز فى يد العربان بينما كان ذاهبًا من جبل شمر إلى الطائف فى مكان يسمى (سويلة) وهو لابس ملابس البدو، وعرف أنه أجنبى فجرّده البدو وأرقدوه على الأرض ليقتلوه، ورأى ذلك بستانى حديقة الشريف عبد الله باشا فى سويلة وعبده المعتوق وأسرعا إلى البدو وأنقذاه بصعوبة من أيديهم، وأخذوه إلى حسين باشا الذى كان فى الطائف وسلموه له.

استضاف حسين باشا الإنجليزى فى منزل رئيس باور انه محمد أغا. واستردوا جميع أشياءه وأعادوها له وبعثوا به فى رفقة موظف خاص إلى جدة دون أن يمر بمكة.

وكان هذا الشخص قد أعجب بقبة ضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنه) من حيث الفن والصنعة وأخذ لها صورة فوتوغرافية، كما أخذ صورة لرسم أيبو قراط الذى جذب نظره فى أثناء الطريق.

أخطار:

لما كانت الأراضى التى فيها مكة والطائف وجدة وما حواليها غير مسكون فى عهد أيبوقراط كما أن أيبو قراط لم يزر أرض الحجاز وهذا معلوم لدينا، لذلك لن نخوض فى هذا الموضوع ولكننا كمؤرخ سنكتفى بقيد ما سمعناه وشهدناه.

فى تعريف ينبع ورابغ وخيبر وحناكية

لما كان فى الأقطار الحجازية مكانان يحملان اسم ينبع، يطلق على أحدهما (ينبع البحر)، وعلى الآخر (ينبع النخل).

ينبع البحر:

يقع ينبع البحر على الجانب الغربى من البحر الأحمر وعلى شاطئ البحر وعلى بعد ٢٢٥ كيلو متر غرب المدينة المنورة[١] يعنى يبعد عن مكة المكرمة ٥٣ ساعة وهو ميناء مزدحم بالسفن ويسكنه خمسة آلاف نسمة تخمينًا.

ويحيط بالميناء السور الذى جدده فى سنة ١١٢٦ عثمان باشا الذى أرسل من استانبول عام ١١٢٦. وفى داخل السور ثمانمائة منزل وثلاثمائة دكان وثلاثة جوامع ومخزن ودائرة حكومية واحدة.

ولما كان ينبع البحر ميناء جميلاً ومرساة المدينة المنورة يوجد فى تلك المدينة فرقة من جنود المشاة وبعض أفراد المدفعية.

ولما كان ينبع البحر محرومًا من المياه العذبة مثل جدة فالأهالى يشربون من مياه الأمطار المحفوظة فى الصهاريج ومن مياه الآبار غير العذبة المحفورة على طريق سيل بعيد عن بلدة (سهيلى) بأربع ساعات أو ثلاث.

ينبع النخل:

تقع هذه المدينة على الجانب الشرقى من ينبع البحر وعلى بعد ست ساعات منها وهى عبارة عن عدة قرى.

(١) خمس مراحل بسير الجمل.

ولما كانت حول كل قرية مياه جارية فلسكانها بساتين وحدائق ونخيل لا يعد ولا يحصى سميت تلك القرى (ينبع النخل) ومن كثرة مياه ينبع النخل أنها بعدما تسقى الحدائق والبساتين يجرى الفائض منها عبثًا.

ويمكن إجراء إحدى هذه المياه إلى ينبع البحر بصرف بعض المبالغ إلى ينبع البحر، إلا أنه لم يظهر إلى الآن شخص يبذل جهوده فى سبيل هذا الخير.

رابـغ:

رابغ على شاطئ البحر الأحمر بين جدة وينبع البحر وهو مرساة صغيرة، وعلى بعد شمالى جدة بسبعة أميال بحرًا وعلى بعد ثلاثين ساعة برًا.

ورابغ قرية تتكون من مرفأ وجامع وعدة دكاكين مبنية من سعف النخيل أما سكانها فموظفو الحجر الصحى والجمرك وعدة رجال للشرطة، وعدة فلاحين للبساتين وأصحاب الفلايك، والقوارب.

ومدينة رابغ الأصلية على الجانب الشرقى من المرساة وعلى مسافة ساعة منها، ولها قلعة متينة وسبع آبار وعشرة صهاريج وخمسة جوامع وستون دكانًا و١١٦ منزلاً وعدد سكانها ٣٦٩ نسمة.

ولما كانت تلك المدينة فوق وادٍ رملى منبسط وعلى مسار السيل فأنَّى تَحْفُر يخرج ماء صالح للشرب، ولكنها خالية من المياه الجارية وقد زينت أطرافها الأربعة بالبساتين وأشجار النخيل والموز. ويبلغ عدد سكانها ما يقرب من ألفين إلا أن كلهم يعيشون فى حالة بدوية.

ويبعد موقع المدينة عن مكة أربع مراحل برًا وعن المدينة المنورة ست مراحل. والحجاج المسلمون الذين يتحركون سواء أكان من مكة المكرمة أو من المدينة المنورة إذا وصلوا إلى هذه المدينة فإنهم يقيمون فيها يومًا أو بعض أيام للراحة. وليست المدينة ميقاتًا للحجاج الواردين من الأطراف أو غيرهم، فالذين يذهبون من المدينة إلى مكة المكرمة وحجاج وقوافل مصر والشام يحرمون فى هذا المكان.

لما كانت مدينة رابغ ممر محامل قوافل الشام ومصر فالذخائر اللازم إعطاؤها للمحامل تحفظ فى داخل المخازن التى فى القلعة وهناك مجموعة من العساكر السلطانية وبعض المدافع مع أنفارها.

خيبر:

باللغة اليهودية بمعنى قلعة، لأن الأهالى عندما يذكرون قلاعهم يقولون عنها خيابر.

وعلى رواية أن أخا الشخص الذى بنى مدينة يثرب أولاً وهو يثرب وكان يسمى (خيبر) وكان هذا الشخص بانى قلعة خيبر لذا سميت هذه المدينة (بخيبر).

مدينة خيبر:

لما كانت مدينة خيبر تشتمل على مياه جارية ومزارع كثيرة وأشجار النخيل وحقول الشعير والقمح كانت فيما مضى مدينة كبيرة. أما اليوم فهى خالية من العمران، وسكنتها زنوج تسلسلوا من نسل العبيد الذين أعتقوا يبلغ عددهم نحو ألف نسمة.

ولما لم تسلك طرق المياه الجارية من القديم ولم تظهر مجاريها تكونت هنا وهناك برك من المياه الراكدة، ولم يدر سكانها أن جودة الهواء قد اختلت من تعفنات المياه الراكدة فأثرت فى قواهم الجسمية، وانصرف كل واحد منهم إلى غيرها كى ينجو من الحمى وابتعدوا عن وطنهم.

ومازالت علة الحمى تنتشر بشدة فى تلك الأراضى إلا أنهم يروون أن هواءها ومياهها صالحة لسكانها السود. وهذه الرواية تصدق أن الزنوج يعيشون حيث يختل الهواء ويتعفن.

ويأتى إلى القرية فى مواسم الخريف حينما يطيب البلح الكثير من العربان ويقيمون فى داخل القرية وحولها، وعندما ينتهى موسم البلح يعودون إلى منازلهم وينبت فى خيبر القمح والشعير بكثرة.

إذا ما وجد حل للعفونة والتخلص منها أى إذا ما طهرت مجارى المياه التى تعطلت، وفتحت أماكنها التى امتلأت عندئذ يطيب هواؤها، وسيرغب فى سكناها العربان الذين يرغبون فى حياة مدنية ويشغلون بالزرع والحرث عندئذ سيعود لخيبر عمرانها الذى فقدته وإننا نطلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يخلق أسباب ذلك.

الحناكية:

الحناكية قرية تقع على ثلاث مراحل فى الشمال الشرقى للمدينة المنورة.

وإن كانت هذه القرية فيما مضى قرية مشهورة معمورة وكانت لها قلعة صغيرة وعدة منازل.

وهواؤها لطيف، وأراضيها فى غاية الخصوبة وهى فى نهاية حدود الأقطار الحجازية وقطعة نجد.

كانت قلعتها أشرفت على الخراب فعمرت فى ظل عون السلطان وزيدت قوتها العسكرية.

ولما كانت خصوبة أراضيها تامة ولما كانت مياهها فى عمق الأرض البسيطة بقامتين جذبت إليها العربان من الأطراف والأكناف حيث استوطنوا واشتغلوا بالزراعة والحرث راغبين فى حياة مدنية، ومازالوا يأتون إليها.

إخطار:

وستذكر فيما بعد وحسب المناسبة قبائل العربان ما عدا الذين يسكنون فى بلاد الحجاز المشهورة.

بعض أحوال الأراضى الحجازية

ومحاصيلها الداخلية وطريقة معيشة سكانها وصورة إدارتهم

أكثر أراضى الخطة الحجازية عبارة عن الجبال المكونة من الحجارة والوديان الرملية وصحارى مترعة، ومابين الجبال.

ولا تمطر السماء فيها فى أكثر مواسمها، لذلك فمحاصيلها الداخلية ليست بالدرجة الكافية لسكانها، كما أن جبالها وصحاريها غير صالحة لإنبات العشب، وتنمية محاصيل تكفى الحاجة.

وإن كانت فى داخل تهامة وفى الأماكن المستوية من الجبال أراض منبتة ومياه جارية، وإن كان ما ينبت فى هذه الأماكن مشهور فى داخل الأراضى الحجازية، إلا أن ضرورات الأهالى فى الحبوب وغيرها تأتى من بومباى، ومصر والبصرة وبغداد ومحاصيل القطعة المباركة المحلية هى: (البلح، زيت البلسم، الصمغ العربى، سنامكى، الحنة، الخوخ، البرقوق، التفاح، المشمش، الكمثرى، التوت، السفرجل، العناب، التين، اللوز، التمر الهندى، عين الجمل، العنب، الموز، الشمام، البطيخ، ليم البرتقال، الليمون، شمام الشجرة، خيار، الليمون الحلو، الأجور، التين الأفرنكى، الكوسة، الخرشوف، البصل، البامية، الملوخية، الثوم، الطماطم، الفاصوليا، الباذنجان، الكراث، الكرنب، وغيرها ومن الحيوانات الأغنام وسائر الحيوانات مثل (الجمل، المعز، الخيل، الحمار، الفرس، البغل، البقرة الهجين، الثور) ومن **الحيوانات المتوحشة**: (المعز الجبلى، الحمار الوحشى، البقر الوحشى، القرد، الذئب، والغزال، الضبع، والثعلب،

والفهد) ومن الطيور: (الدراج، البط، الدجاج، اللوز، اليمامة، الحجل، النعامة، مالك الحزين، الحبارى، الديك الرومى، الحمام، الهدهد، الغراب، عقاب النسر بأنواعه، وينبت فى جبل كرا (الزيتون البرى، شجر العرعر، اللوز البرى، الياسمين البرى) وفى جهات تهامة أشجار (التمر الهندى، التوت، البلح، والحنة، الطرفاء والبنج)

جبل (كراء):

جبل ضمن سلاسل جبال يطلق عليها (سراة) فى الجهة الشرقية من مكة المعظمة وعلى بعد اثنتى عشرة ساعة منها وقمته ترتفع عن سطح البحر بألفى متر.

وبما أن أكثر أماكن سلسلة جبال (سراة) صخرية تخلو من النباتات والأشجار، إلا أن بجبل كرا غابات جميلة ومياه جارية ومواقع ذو هواء صحى جيد.

ومواسم الحجاز تنقسم إلى قسمين:

أحدهما جاف والآخر ممطر. وإن كان فصل المطر يجعل الأراضى تخضر فجأة، إلا أن هذا الاخضرار لا يدوم طويلاً لسخونة هوائه التى تدوم طويلاً.

والرياح التى تهب فى هذه البلاد شديدة ومضرة للإنسان، إلا أن رياح السموم أكثر ضرراً من الرياح الأخرى.

والعربان الذين يعيشون بين الجبال ولا سيما العربان الذين يعيشون فى سهل تهامة يعيشون بزراعة (الدخن والذرة) والذين يعيشون على الساحل الحجازى للبحر الأحمر يقتصر نشاطهم البشرى على صيد السمك.

وفى البحر الأحمر أسماك غريبة الشكل وأنواع طيوره ضخمة الأجسام وسلاحفه ضخمة. حتى إن أكثر سكان (جدة، رابغ، وينبع البحر) يأكلون المخلوقات البحرية، ولا سيما الأسماك بدلاً من الخبز، ومعيشتهم تتوقف على ما يصيدونه من الأسماك. أما فى سواحل اليمن فليس للأسماك أهمية كبيرة، وما

يصطادونه من الأسماك يخفضونها ويعلفون بها الحيوانات بدلاً من العشب والتبن.

ويُخرج سكان جدة والشواطئ الأخرى أصدافًا من البحر، ويبيعونها للتجار وقد تُعثر فى داخل هذه الأصداف على الدر النادر كما أن اليسر الذى يستخدم فى صناعة المسابيح وفلاتر السجائر يستخرج من هذا البحر.